

و منهم من ينظر إلى الظاهرة على أنها إنتاج ظروف تاريخية و سياسية و إجتماعية و إقتصادية مر بها المجتمع الغربي. و من ثم تأخذ الظاهرة في نظرهم أساليب مختلفة للتعبير عن الرفض ، و لو افترضنا أن هذا الإتجاه صحيح فإن الرفض الذي يبديه شباب أوروبا يختلف عن رفض الشباب الصيني و يختلف هذا و ذلك عن نماذج الرفض التي تسود بين شباب العالم الثالث ، و من ثم تبدو الظاهرة نتاجا لعوامل تاريخية بنائية و الظروف الراهنة للمجتمع و النسق القيمي السائد. فإذا رجعنا إلى الوضع عندنا نجد المشكلة مضاعفة ، فالكتابات النفسية و الإجتماعية تكاد تردد ما تنقله حرفيا عن الكتب الغربية و شباب الغرب ، و تسقطه على شبابنا ، و في أحسن الحالات تستند إلى بعض الحالات الفردية المتفرقة المماثلة لأنك - و الشاذ لا يقاس عليه - . يضاف إلى ذلك وسائل الثقافة و الإعلام التي تنقل السلوكات و الأفكار الجاهزة التي يتلقفها الشباب دون وعي في ظل إنعدام البديل الحضاري ، ففضاؤنا الفارغ حين لم نشغله نحن قد شغله غيرنا ، في إطار ما يعرف بالغزو الثقافي.

و رغم أن شبابنا متأثر إلى حد كبير بالمظاهر السلوكية لشباب الغرب إلا أن أغلبهم لا يشبه شبابهم في الشعور الزائف بأن المجتمع أحبطهم فوجب أن يناصبوه العداء ، و أن ثقافة أبائهم الأصلية رجعية يجب التتركة لها. غير أن استمرار الوضع في التردّي يوشك أن يعمم الشعور بالإحباط و اليأس لدى شبابنا و هو ما يعرف بالإنهزام النفسي، الذي يدفع إلى التقليد الأعمى و الإتحراف الجنسي و تعاطي المخدرات ، و من ثم تتباعد الهوية بين الثقافة الفرعية الجديدة للشباب و الثقافة المجتمعية الأصلية.

و من هذا المنظور نوجه صيحات النجدة لشبابنا و الذي تشارك فيه كل من السلطات الوصية على الشباب و وسائل الإعلام ، و البحوث و الدراسات النفسية و الإجتماعية و التربوية الموضوعية و النزاهة.

ذلك أن البحث في قضايا كل الشباب الحقيقية يقتضي ربطها بحركية المجتمع، و سيرورته التاريخية، لتقصي العوامل الذاتية و الموضوعية المتسببة و المحكمة في الإشكالية العامة للشباب اليوم بحكم أن هذا الأخير هو إمتداد تاريخي لجيل نوفمبر ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يتكرر لقيمه التي تشكل في الأصل مرجعيته الثقافية مهما تنوعت هذه الأخيرة. و تفرعت ، و التي تعتبر المدخل النظري الأساسي لدراسة ثقافة الشباب و مشكلاتهم ، قصد إدماجهم فعليا في حركة البناء الوظيفي للمجتمع.

فإذا لم نقبل هذا التصور الموضوعي للحل ، فهل فكرة الحل المجردة من شروطها كئيبة بتقديم البديل ، كما يجي التساؤل : " ماذا أمكن أن تقدم النظريات الإجتماعية المستوردة اليوم للشباب بصفة خاصة من حيث السلام النفسي ، و التوازن ، و الطمأنينة و الثقة

ترأيد الإهتمام بالشباب و مشكلاته في عصرنا الحاضر بشكل ملفت للإنتباه في مختلف مجالات العلوم - على المستوى العالمي - بحكم تعقد الحياة و تفاقم مشكلاتها ، و تحتل العلوم الإجتماعية مكان الصدارة من حيث الإهتمام بهذه الشريحة ، إعترافا منها بما للشباب من مكانة في بناء المجتمع ، أو ما لهم من دور في هدمه، من خلال أوضاعهم و إتجاهاتهم و قيمهم السلوكية. و مع أن التفكير في مشكلات و أزمات الشباب و محاولة إيجاد الصيغة اللازمة لتوجيهه إجتماعيا و أخلاقيا محاولة قديمة تصدى لها الفلاسفة و الكتاب و علماء النفس و التربية و الساسة و المصلحون الإجتماعيون، و رجال الإعلام - كل حسب منظوره الإصلاحية - الأمر الذي يعكس الإهتمام الجدي بهذه الشريحة المجتمعية عبر مراحل التاريخ.

و قد أدى في السنوات الأخيرة إلى بحوث متنامية في التربية و علم النفس الإجتماع من إتخذت من الشباب و قضاياهم و مشكلاته مجالا متميزا لها على المستوى النظري و الأبريقي، تعرف اليوم باسم : سيكولوجية الشباب و المراهقة - و علم إجتماع الشباب ...

كما شهدت الفترة الأخيرة صدور العديد من المؤلفات و الكتب الأجنبية التي أشارت إلى ظاهرة " ثقافة الشباب " التي ينشئون بها بأنفسهم وفق معاييرهم سعيا لتخفيف همومهم و آلامهم، و تطلعا لطموحاتهم و آمالهم . و لعل ما يجمع بين هذه المؤلفات رغم اختلاف توجهاتها النظرية تأكيدها على ما تتسم به " ثقافة الشباب " من خاصية الرفض الذي تبديه للمعايير و القيم ، و سلطة الآباء ... حتى أصبحت هذه الخاصية موقفا عاما يظهر بصورة سافرة في مواقف عديدة و مجتمعات مختلفة.

فثقافة الشباب كما تصورها الكتابات الغربية أسلوب حياة مستقل عن عالم الكبار و عن معاييرهم و قيمه ، " بل قوم على نسق من القيم و المعايير و الأفكار و أساليب السلوك غير الملتزمة " ، (السيد عبد العاطي السيد 1990 - ص 10) ، و هو ما يسمى أحيانا بالثقافة المضادة أو المعادية.

أما تبرير إنتشار هذه الظاهرة فقد اختلف من فكر لآخر أو من منظور لآخر فمنهم من يدعي أن المرحلة العمرية للشباب تتطوي على تغيرات جسمية و مزاجية و عقلية و إنفعالية تؤسم ثقافة الشباب الرفض و التحرر ، و هؤلاء أصحاب المنظور " البيوسيكولوجي " .

و منهم من يصف الظاهرة بالصراع الثقافي أو الفجوة الثقافية بين الأجيال التي تباعد الشباب فيزيقيا و نفسيا و فكرا عن جيل الآباء.

البناء و محاولة تحقيق التكيف مع توقعات الكبار على حد تعبير تالكوت بارسونز T. Parsons إلى معول هدم و يتجلى ذلك في المظهر المادي للرفض أو في الرموز المادية للرفض و التمرد كالمظهر أو الهيئة التي يحاول بعض الشباب أن يبدون عليها ، كما يظهر سلوك الرفض في تمرد بعض الجماعات الشبانية عن المجتمع في شكل ما من أشكال العنف .

فما هو إذا الثقافة التي يجب تنشئة شبابنا عليها حتى يكونوا قادرين على تطوير مقوماتها و تمثل مغزاها . و من ثم يتسنى لهم تطوير خبراتهم المشتركة بطرق مختلفة حسب " ما نهائم " و يكمن الإشكال في تحديد مفهوم مشترك للثقافة يحمل كل مقومات المجتمع و كل شروط التغيير .

و نعتقد أن المفهوم الذي يقدمه عبد الرحمان عزي للثقافة كفيلا بذلك حيث يقول :

الثقافة كل ما يحمله المجتمع في الماضي و ما ينتجه في الحاضر و المستقبل من قيم و رموز معنوية أو مادية ، و ذلك في تفاعله مع الزمان و المكان (المحيط الاجتماعي) انطلاقا من بعض الأسس التي تشكل ثوابت الأمة و أصولها . فالثقافة هي حركة الإنسان الواعية في اتجاه الوضع القائم انطلاقا من الخيال (ما ينبغي أن يكون ، و نعني بذلك أولوية المجال الثقافي على الاجتماعي) . (ع.ر. عزي 1997 - ص 127) . فإذا ما توفرت الظروف النفسية الملائمة و الشروط الموضوعية للحل و نقصد بها مدى الوعي بحتمية الحل ، و توفر الإدارة في الزمان و المكان و الوسائل و الإمكانيات المادية . ثم توفر شرط ذلك كله و هو الحرية فلا شك أن الفعالية سوف تكون ملازمة لمسيرة الإصلاح ضمن المشروع الحضاري العام . لذلك يرى الأستاذ شابو مولاي إريس أن سر فعالية السياسة الشبانية في بلد ما تقوم في مجملها على مدى وعي كل مسؤول و كل شاب على أنه يشارك في عمل جماعي غايته التطوير الشامل للبلاد و عليه أن يعي بكيفية دقيقة الرسالة المنوطة به في المشروع الحضاري للبلاد . شابو مولاي إدريس (1992) .

بالنفس ؟ و الجواب على هذا السؤال تدل عليه الظاهرة الاجتماعية الشبانية في صور البطالة و التسكع في الشوارع ، و تعاطي المخدرات و الانحرافات الجنسية ، و السلوكات العدوانية و ...

و السبب هو تبني حلول جزئية مبنية على الأهواء و الإرتجالية ، غير واعية بجذور المشكلات و مضاعفاتها . أو تبني حلول جاهزة مستوردة ، و إذا أسلمنا :

جان النظريات الاجتماعية نسبية لأنها متأثرة بالموقع و المنبت و الزمان .

و أنها ترتبط بمشاعر الإنسان و عواطفه و بالتالي لا يمكن إخضاعها للقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية .

و إن هذه الخصوصيات أدت إلى نسبية المناهج و الطرق في العلوم الاجتماعية لكون هذه الأخيرة غير متحررة من الأهواء ، و المصالح و بالتالي لا يمكن تعميم نتائجها .

في ضوء هذه المسلمات يتبين لنا مدى الخطورة التي تكمن في الترويج لهذه النظريات في أفق مجتمعنا و التي إنكشف فسادها و تبين أنها لا تحقق الإستجابة الحقيقية المطلوبة و أنها في حاجة إلى إدخال تعديلات جوهرية عليها ، و تقديم الحلول أو البدائل الجادة ، و عدم الركون إلى الإتكالية و الحلول الجاهزة ، و إلا سوف تستمر خطة الهدم التي نراها تتبع نفس خطوات قانون البناء : بناء الإنسان ، حماية الفردية ، بناء الأسرة ، بناء المجتمع .

و من الأهداف الكبرى لهذا المخطط : توسيع الهوة بين ثقافة الشباب و ثقافة الكبار (ثقافة المجتمع المتأصل) تنمية اللاتجانس بين الشباب من حيث الحظوظ في الدراسة و التكوين و فرص العمل و لإثبات الذات ، و يتجلى ذلك بين شباب الريف و المدينة ، و بين شباب الطبقة الاجتماعية المحرومة و الطبقة المهيمنة ، و لتغطية هذا الإحاف في حق الشباب ، و العجز عن تقديم الحلول الحقيقية له تعتمد الخطة المسطرة للشباب سياسة الكارنفل و التهرج لصراف إنتباه الشباب و تشغله بنشاطات تافهة أشبه ما تكون بمخدر جماعي يطيل عمر الأزمة الشبانية و يزيدها تقاعسا و عمقا .

ذلك أن نمو الفوارق بين الشباب و اللاتجانس في الحظوظ يؤدي حسب Fischer إلى إضعاف العلاقات الشخصية المتبادلة و يقلل من الروابط الأولية

و الإجماع المعياري ...

كذلك يترتب على الكثافة الشبانية العاطلة و التي تتركز أساسا في المناطق الحضرية مزيد من التباين الاجتماعي ، و ما يصاحبه من إغتراب و تفكك اجتماعي ، و سلوك منحرف ، و فقدان للمعايير ، و بالتالي تعجز جماعة الشباب على تطوير انساق اجتماعية تلقائية تحميها من التهديدات الخارجية و تحقق لها مزيدا من الإشباع النفسي و الاجتماعي ، فتتحول ثقافته من وظيفة

المراجع :

- 1- السيد ع. العاطي السيد / صراع الأجيال - دراسة في ثقافة الشباب - دار المعرفة الجامعية 1990.
- 2- محمد علي محمد / الشباب و التغير الإجتماعي - دار المعرفة الجامعية 1987.
- 3- أنور الجندي / مفاهيم العلوم الإجتماعية و النفس و الأخلاق في ضوء الإسلام - دار الكتب - الجزائر 1987.
- 4- عبد الرحمان عزي / مقال بعنوان : " الإعلام و البعد الثقافي من القيمي إلى المرئي " مجلة التجديد العدد 1 - 1997.
- 5- شابو مولاي إدريس / محاضرات في تاريخ التربية في الجزائر - مجلة علم النفس - جامعة الجزائر 1992.
- 6- Henri Mendras, Eléments de Sociologie, Armant Colin - PARIS. 1975